﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنـوارُ الإيـمـانِ تـسـعـى لِمَـن أقـرضَ الـدّيّـانَ يـومَ الـجـزاءِ والإحسانِ

لمّا دعتِ الآياتُ السّابقةُ إلى الإيمانِ باللّه ﷻ وبرسوله ﷺ، وإلى تنفيذ تكاليف هذا الإيمان، ومنها: الإنفاقُ في سبيل اللّه، ووعدَ على ذلك بالثّواب الجزيل؛ بيّنَ في هذه الآيةِ ما أعدّه للمؤمنين من ثوابٍ عظيم، تمثّل في النّورِ الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانِهم، مصحوبًا بالبِشارةِ بما أعدّه اللّهُ لهم من النّعيم المُقيم.

ومنها: لمّا وعدَ الحقُّ سبحانه في الآيةِ السّابقة مَن يُقرضُهُ قرضًا حسنًا بالجزاءِ الكريم والمضاعفةِ الجليلة؛ أراد أن يُصوّر مشهدًا من مشاهد هذا العطاء يومَ الجزاء، فبيّن زمنَ نوالِ ذلك الأجرِ، وظهورِ ثمرةِ ذاك الإيمانِ، فقال: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرَى﴾: (رأى) أصلٌ يدلّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ، فالرَّأي ما يراه الإنسان في الأمر، وجمعه: آراء[2]، والرّؤية إدراكُ المَرئيّ، أمّا الرّؤيا فهو ما يُرَى في المنام[3]، والفرق بينهما لفظًا: أنّ فعل الرّؤية بالعين يتعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلْم يتعدّى إلى مفعولَيْن، وحقيقة الرّؤية في الآية ﴿تَرَى﴾ من الضّرب الأوّل، أيْ: أنّها رؤيةٌ عينيّةٌ؛ فهم يرون بالعين المُجرَّدة النّورَ الحقيقيّ للمَمْدوحين من أهلِ الإيمانِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 271.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (رأى).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105.

2) ﴿يَسْعَىٰ﴾: جذره اللّغويّ (سعي)، ومعنى السَّعي: المَشْي السّريع، وهو دون العَدْوِ، ويُستعمل للجِدّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: 114]، وأكثر ما يُستعملُ السّعي في الأفعال المحمودة، وأصلُ السّعي أنْ يتصرّف الرّجل في كلّ عملٍ[1]. ومعنى ﴿يَسْعَىٰ﴾ في الآية: يمشي النّورُ – وهو نورُ الإيمانِ – قُدّامَ المؤمنين على الصّراطِ فيَهْتَدون به[2].

3) ﴿نُورُهُم﴾: (نور) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إضاءةٍ واضطرابٍ وقِلّة ثباتٍ، منه النّور والنّار، سُمّيا بذلك من طريقة الإضاءة، ولأنّ ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة[3]، والفعل منه: نارَ وأنارَ؛ أيْ: أضاء[4]، وشأن النّور أن يكون واضحًا بيّنًا؛ ولذلك ورد في الخبر: "أنّ عمر ﷺ فرضَ للجَدِّ، ثمّ أنارها"؛ أيْ: أوضحها وبيّنها[5]، والنّور: هو الضّوء المُنتشر الذي يُعينُ على الإبصار، وذلك ضربان؛ ضربٌ معقولٌ بعينِ البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهيّة كنور القرآن، ومحسوسٌ بعين البصرِ، ومن معانيه أيضًا: الإسفار[6]، ومن النّور الأُخرويّ قوله تعالى في الآية: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، والنّور هنا القرآن[7]، ويجوز أن يكون نورًا حقيقيًا يُضيء بين أيديهم[8].

4) ﴿وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾: جمعُ مفرده (يمين)، و(يمن) كلماتٌ من قياسٍ واحدٍ، فاليمين: يمين اليد. ويُقال: اليمين: القوّة، واليُمْنُ: البركة، وهو ميمونٌ، واليمينُ: الحَلِف، وكلّ ذلك من اليد اليمنى[9]. ومنه التّيمُّن، وهو الابتداء في الأفعال باليد اليُمنى، وكذا بالرِّجْل والجانب الأيمن[10]، واليمين الجهة اليمنى لجانب الإنسان، والمقابلة لجهة الشّمال[11]. ومعنى ﴿وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ في الآية موضع الشّاهد: هي الأيادي اليمنى خلاف الشّمائل؛ لأنّ السّعداء يُؤتَون صحائفَ أعمالِهم من هذه الجهة[12].

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، والفيوميّ، المصباح المنير: (سعي).
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 5/ 477.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يمن).
(4) الخليل، العين: (نور).
(5) الهَرَويّ، الغريبين: (نور)، وابن الأثير، النّهاية: 5/ 125.
(6) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (نور).
(7) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 542.
(8) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 470.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نور).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (يمن).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شمل).
(12) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 239.

5) ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾: اسمٌ مقصورٌ ثلاثيٌّ، وهو مصدر، و(بشر) أصلٌ واحدٌ، يدلّ على ظهور الشّيء مع حُسن وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، وسُمّي البَشَر بَشَرًا لظهورهم. والبَشير: الحَسَن الوجه. والبِشارة: الجمال[1]. ومنه: البِشارة في الخبر خيرًا أو شرًّا، وأصلُ البِشْر بالكسر هو الطَّلاقةُ وبسطُ الوجه[2]، والبُشرى هو الخبر الذي يُغيّر البَشرةَ من حزنٍ أو سرورٍ، ثمّ خُصّ في عُرْف اللّغة بالسّرور، وهي أوّل الخبر[3]، ويُقال: أبشرتُ وبشّرتُ، إذا أخبرتَ بأمرٍ مُفرحٍ سارٍّ[4]، وسُمّيت بذلك من البشر وهو السّرور؛ لأنّها تُظهر طلاقةَ وجهِ الإنسانِ وفرَحَه. والمقصود من ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾ في الآية: القول الذي تتلقّى فيه الملائكةُ المؤمنين، ومضمونُه أنّكم ستدخلون جنّات ربّ العالَمين، وذلك الفوز العظيم[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهـلُ الإيـمـانِ نـورُهـم يُحيطُ بـهـم مـن كـلِّ جانبٍ

يبيّن اللّهُ ﷻ في هذه الآية أنّ المؤمنين في يوم القيامة لهم نورٌ يسعى بين أيديهم، ويُضيء من جوانبهم، يُهْدَون به على الصّراط، فيَمضون مُطمئنين يحوطهم النّور إحاطةً تامّةً، وتستقبلهم ملائكةُ الرّحمة بنداءِ الوعدِ ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ أيْ: هنيئًا لكم هذا اليوم، يوم الكرامة الإلهيّة، ثمّ يفتح لهم أبوابَ الخُلود في جنّات تجري من تحتها الأنهار، لا يعتريهم فناءٌ ولا نَصَبٌ، وتُخْتَم البشارةُ بوصف لا يُزاد عليه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(3) النوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 267.
(4) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 128، والصُّحاري، الإبانة في اللّغة العربية: 2/ 280.
(5) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 5/ 187.
(6) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 404.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

التّوطئةُ للإشادةِ بجزائِهم في يومِ التّكريمِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنّه جاء استئنافًا ابتدائيًّا، لمناسبة ما تقدّم من وعدٍ كريمٍ في قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، فهو بيان لبعض ما أعدّ المولى سبحانه للمؤمنين من مظاهر الكرامة والمزايا[1]، توطئةً للإشادة بجزائهم في مشهدٍ مُشرقٍ من مشاهدِ النَّعيمِ.

بلاغةُ حذفِ الفعلِ (اذكر):

الإشـــارةُ إلى عظَمةِ المَشهدِ وجلالةِ المآلِ

حُذِفَ الفعل (اذكر) النّاصب لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ على جهة التّعظيم[2]، تنبيهًا إلى عظمة المشهد، وجلالةِ المآل، وللتّنويه بمشهد الجزاء؛ لأنّه لَمّا كان معلومًا أنّ مضاعفة الثّواب، وإيتاءَ الأجرِ لا تكون إلّا في يوم الجزاء، ترجّحَ أن يكون قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ منصوبًا بفعل محذوفٍ مُقدَّرٍ هو (اذكر)[3]؛ تنويهًا بعظَمة ذلك اليوم، لما فيه من مشاهد الفضل الإلهيّ، حيثُ يُجْزَل الثّوابُ للمؤمنين والمؤمنات، ويَحِلُّ الحرمانُ والخِزيُ بالمنافقين والمنافقات[4]. وممّا يُذْكَر في بلاغة حذف الفعل (اذكر) الإيغالُ في التّشويق، والاستحضارُ لمشهد القيامة كأنّه حاضرٌ للعيان، يرى فيه المؤمنين والمؤمنات ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في موطنٍ تتكاثف فيه الظّلمات، وتنهارُ فيه الأجرام، وقد نُصِبَ الصّراطُ على متن جهنّم؛ فصار المُرور عليه رهينَ النّور في ذلك الموقف المَهول[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 379.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475.
(3) السّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 10/ 241.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 379.
(5) السّعديّ، تفسير الكريم الرّحمن، ص: 839.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿يَوْمَ﴾ بالتّنكير:

التّنكيرُ يبعثُ في النّفسِ الهيبةَ والفَزَعَ من الهولِ العظيمِ

جاء التّعبير بـ﴿يَوْمَ﴾ مُنكَّرًا دون أن يُصرِّح بـ(يوم القيامة)؛ ففي التّنكيرِ ما يُثير الرّوعَ، ويبعثُ في النّفس الهَيبةَ والفَزَعَ، لما فيه من تهويلِ شأنِه، وتعظيم أمرِه[1]؛ فهو اليومُ الذي تتكشّفُ فيه الحقائقُ، وتُجْزَى فيه الأعمال.

سرُّ التّعبيرِ بالرّؤيةِ في قولِهِ: ﴿تَرَى﴾ دون (النّظر) أو (البصر):

جلالُ الرّؤيةِ في مشهدِ الإكرامِ

جاء التّعبير بفعل الرّؤية في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ دون (تنظر) أو (تبصر)؛ لأنّ الرّؤية أعمُّ وأبلغ وأشمل، إذ تدلّ على الإدراك القويّ المباشر بلا واسطة، وتُفيد إحاطةُ المشهد إدراكًا وبصيرة، لا مجرّدَ وقوعِ البصر؛ إذ هو من أقوى أفعال الإدراك، وهو أنسبُ بسياق التّفخيم والتّشويق؛ لما يحمله هذا المشهد من جمال المنظر وبهاء الصّورة في انعكاسها على القلب، بخلاف (النّظر) الذي قد يدلّ على مُجرَّد التّوجُّه بالبَصَرِ، أو (البصر) الذي يقتصر على حاسّةِ العين.

بلاغةُ الخطابِ في قولِهِ: ﴿تَرَى﴾:

شهودُ المؤمنِ لثمرةِ عملِه تشريفٌ وتكريمٌ

الخطابُ بقوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه إيحاءٌ بأنّ المؤمن يشهدُ ثمرةَ عملِه الصّالح رأيَ العين في مشهدٍ من التّشريف والإكرام؛ إذ تُعْرَض عليه حسناتُه عرضًا مشهودًا لا خفاء فيه ولا التباس، فيرى ما قدّم مُسطّرًا في صحفٍ مُكرّمةٍ، مُثقّلًا في ميزان الحسنات جزاءً وفاقًا من لدن حكيمٍ عليمٍ، جزاءً لا يعتريه نقصٌ، ولا يُشاب ببخسٍ، بل هو تامُّ الكمال، وافٍ بجلالِ المآلِ[2].

دلالةُ الخطابِ الإلهيّ في قولِهِ: ﴿يَوْمَ تَرَى﴾:

التّأنيسُ للمؤمنين في مشهدِ يومِ الدّينِ

وجاء الخطاب الإلهيّ هنا إيغالًا في التّلطّف، واستجلابًا

(1) الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 11/ 337.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 82.

للإيناس، إذْ يحمل في طيّاته بشارةً رقيقةً تمسُّ شغافَ القلوبِ، وتغمرُ الأرواحَ بالطّمأنينة، كأنّ الله تعالى يخاطبُ عبادَه المؤمنين خطابَ الحبيبِ لحبيبِهِ، ليُقِرَّ أعينَهم بما أعدَّ لهم من نورٍ وهدايةٍ، وفوزٍ عظيمٍ في ذلك الموقفِ المهيبِ[1].

دلالةُ المضارعِ في فعلِ الرّؤيةِ:

حيويّةُ المشهدِ وواقعيّتُهُ في تصويرِ يومِ الجزاءِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿تَرَى﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الذي يدلُّ على التّجدُّد والحُدوث، إيماءً بحيويّة المشهدِ واستمراره حتّى لَيُخيَّلَ لقارئه أنّه يشهده رأيَ العين، فتتجسّد الصّورةُ حيّةً نابضةً بالحركة والضّياء، تقرِّبُ الموعودَ إلى القلب، وتثبّتُه في الوجدان، بما يحملُه من بشارةٍ وسكينةٍ، واستحضارٍ لجلال الموقف وبهائِهِ.

سرُّ التّعبيرِ بوصفِ الإيمانِ دونَ الإسلامِ:

الإيمانُ نورٌ مُستقِرٌّ يُفرّقُ بين الصّادقين والمنافقين

جاء التّعبير بلفظ الإيمان في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دون ذِكْر الإسلام؛ تمييزًا دقيقًا بين أصحاب الإخلاص والتّصديق، وبين المنافقين الذين وإن أُشير إلى أنّ لهم نورًا، إلّا أنّه سرعان ما يُطفأ، فلا يَلْبَثون أن يتيهوا في الظّلمات حيارى[2]، فكأنّ الفرق بين الإيمان والإسلام هنا هو الفرقُ بين النّور المُستقِرّ، والضّياء الخافت الذي يخبو.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾:

ثبوتُ الإيمانِ ورسوخُه للمؤمنين والمؤمناتِ

دلّ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ في قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ على ثبوتِ الإيمانِ، واستقرارِه في النّفوسِ، فغدا صفةً مُلازمةً لهم، وركنًا راسخًا في قلوبهم[3]، لا محضَ صفةٍ حادثةٍ مُتغيّرةٍ.

(1) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1288.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 839.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 271.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

انـدراجُ جميعِ الموصوفين في كنفِ الإيمانِ

(أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ جنسيّةٌ شاملةٌ، تضمّ كلّ مَن حاز هذه الصّفةَ، فتعمُّ جميعَ المؤمنين والمؤمنات دونَ استثناءٍ، مجسّدةً عموميّتَها وسعتَها في شمولِ كلٍّ من اتّصف بالإيمان[1]، وفي هذا كمالُ المدحِ لهم؛ لذلك ذهبَ بعضُ العلماء إلى أنّ (أل) تُفيد الكمالَ[2] في صفة ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ فتظهرُ هذه اللّفظةُ تعظيمًا وتثبيتًا لما وُصِفوا به من إيمانٍ كاملٍ[3]، لا يشوبُه نقصٌ، فتبدو صفاتُهم كأنّها غايةٌ مكتملةٌ في سموِّها وثباتها، فيُرى المَمْدوحون بهذه الصّفة وقد بلغوا أوجَ الإيمان وتمامَه.

سرُّ الجمعِ بين ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

حظوظُ النّساءِ راسخةٌ في الثّوابِ كحظوظِ الرّجالِ

جاء الجمع بين الجنسين على وجه التّصريح لا الاكتفاء بذِكْرِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على جهة التّغليب؛ إيذانًا بمساواة المرأة للرّجل في الأجر والمقام، وتنبيهًا بليغًا إلى أنّ حظوظ النّساء في هذا الدّين راسخةٌ كحظوظِ الرّجال، إلّا ما خُصّص بدليلٍ، على خلاف ما تقرّر في المَوْروثات المُحَرّفة، كاليهودية التي صوّرت المرأة في زمرة المَلعونات، وجعلتْها محرومةً من كثيرٍ من مقامات القُرْبِ والطّاعة[4]؛ فجاء هذا الجمع لتصحيح التّصوّر، وبيانِ عدلِ الإسلام وسُموِّ تكريمه.

سِرُّ ذِكْرِ المؤمناتِ بعد شمولِ الجمعِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لهُنّ:

جاء ذِكْـرُهـنّ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للتّوكيدِ ورفعِ الالتباسِ

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بذِكْرِ (المُؤمِناتِ) بعد ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مع أنّ الجمعَ المُذَكَّر يشمَلُهُنّ من بابِ التّغليبِ، ولكن جاء ذِكْرُهنّ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، في توكيدٍ يرفع الالتباسَ[5] إكرامًا

(1) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1288.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 116.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 316.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 379 - 380.
(5) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 337.

وتطمينًا، ورَدًّا على ما رسخ في الأذهان من دونيّات جائرةٍ ألصقتها الجاهليّات السّابقة بالمرأة؛ فإنّ"كلًّا من الذَّكَر والأنثى له أجرُهُ على عمله الصّالح، بدون إجحافٍ أو محاباةٍ لجنسٍ على جنسٍ"[1].

بلاغةُ الموقعِ الإعرابيِّ لجملةِ ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾:

أنوارُ الهدايةِ لا تفارقُ أصحابَها بين السّعيِ والوقوفِ

جاءت جملةُ ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ في موقع الحال[2]؛ لتُجسّدَ المشهدَ الحيَّ للمؤمنين والمؤمنات يومَ القيامة، كأنّك تراهم في لحظةِ انبعاثِ النّور من ذواتِهم، يسعى مُتقدّمًا بين أيديهم وبأيمانهم، في دلالةٍ على مرافقةِ النّور لهم في كلِّ حالٍ، لا ينفصل عنهم، إنْ سَعَوا سَعَى معهم، وإنْ وقَفوا توقّفَ، فهو هادٍ لهم في ظلماءِ الموقفِ، ومُسَرّعٌ لمسيرهم إلى الجنّةِ[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالسّعي دونَ المشي:

السّعيُ يوحي بمعانٍ من الجِدّ والمثابرةِ والإقبالِ الحثيثِ على المقصودِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظِ السّعي في قولِه تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ دون المشي لما يحمله السّعيُ من دلالةٍ زائدةٍ على مُجرَّد الانتقالِ بالأقدامِ؛ فالسّعيُ في اللّغةِ هو المشيُ السّريع الذي لا يبلغ حدَّ العَدوِ، وهو مشيٌ ينطوي على اجتهادٍ وحرصٍ ومبادرةٍ، بخلاف المشي الذي قد يُفهم منه التّمهّل، فاختيارُ لفظِ السّعي هنا يوحي بمعانٍ من الجِدّ والمثابرة والإقبال الحثيثِ على المقصود، وهو فعلٌ محمودٌ[4]، وهو في هذا السّياق الكريم يدلُّ على نورٍ يسعى بأهله سعيًا حثيثًا، في مشهد مهيب مُفعَم بالبشارة والكرامة، ليُبْرِزَ أنّ ذلك النّورَ ليس ساكنًا ولا بطيئًا، بل مُندفعًا مُتتابعًا يواكب مسيرَ المؤمنين في جِدّهم واجتهادهم حتّى بلغوا هذا المقامَ الرّفيع. وممّا يُذْكَر في سِرِّ التّعبير بالسّعي أنّه يُؤدّي معنًى لا يُؤدّيه المشيُ؛ لأنّهم لو

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 209.
(2) العُكبَري، التّبيان: 2/ 1208.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 337.
(4) حقّي، روح البيان: 9/ 359.

مَشَوا، وهو أبطأ من السَّعي ما سعى النّورُ بين أيديهم؛ لأنّه إذا سعى وهُمْ يَمْشون الهوَينا لم يكن سعيًا بين أيديهم لأنّه يَخْلفُهُمْ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَسْعَىٰ﴾:

استحضارُ مشهدِ الرّؤيةِ كأنّه ماثلٌ للعيانِ

آثَر القرآن الكريمُ التّعبيرَ بصيغة المضارع ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ لأنّها "أقدرُ الصّيغِ على تصوير الأحداث واستحضارِ مشهد حدوثِها، وكأنّ العين تراها وهي تقع"[2]؛ لذا استعمله في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ لتصوير المشهد كأنّه ماثلٌ للعيان، حاضرٌ في لحظته، ينبض بالحركة والدّهشة، فكأنّك تبصر النّور يخترق الظّلمات، يمشي أمامهم ويتهادى بأيمانهم، في لحظة يغمرها الرّجاءُ والرّهبة، ويدلُّ أيضًا على الإسراع إلى الجنّة.

سِرّ التّعبيرِ بلفظِ النّورِ دونَ الضّوءِ:

نورٌ ربانيٌّ لا ضوءٌ مادّيٌّ منبعثٌ من الأجرامِ يهديهم في ظلماتِ الأكوانِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالنّور في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ دون الضّوءِ، دلالةً على أنّه ليس ضياءً مُنبعثًا من جِرمٍ، بل هو نورٌ محيطٌ بهم من كلّ جهةٍ[3]، يهديهم في موطن الظّلمة والهَول. ولأنّ النّور جامعٌ للمعاني، والضّوءَ مقصورٌ على المباني، ولأنّ النّور أعمُّ؛ فهو لفظٌ متّسعُ الدّلالة، تتشعّبُ منه المعاني، فيُطلَق على الحقيقة الحِسّيّة، كما يُطلَق على المعنويّة، فقد يُراد به هنا الهدايةُ، أو الإيمانُ أو الرّضوانُ، أو القرآنُ الذي استضاءت به قلوبُهم، أو ما اجتمع لهم من عملٍ صالحٍ في الدّنيا تجلّى أثرُه يومَ القيامة[4]، بخلاف الضّوء، فإنّه لا يكاد يُستعمل إلّا في المعنى الحِسّيّ المَحض؛ ولذلك اختير (النّور) لأنّه أشمل، وأدلُّ على المقصود. وممّا يُذكَر

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 239.
(2) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 264.
(3) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 236.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 244، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 758.

في سِرّ التّعبيرِ بالنّور دون الضّوء وجودُ فرقٍ بينهما؛ فالضَّوء ما كان من ذات الشّيء المُضيء، والنّورُ ما كان مُستفادًا من غيره[1]، فالضّوءُ تابعٌ للنّور، مُترتبٌ عليه، لا يوجد إلّا بوجوده؛ فقد يوجَد النّورُ ولا يوجد الضّوء، وناسبَ هنا التّعبيرُ بالنّور؛ لأنّ نور المؤمنين والمؤمنات مُكتسَبٌ ممّا قدّموا من إيمانٍ وإنفاقٍ وعملٍ صالحٍ؛ فلا يَحْسُن التّعبيرُ بالضّوء الذي ينبعث من الجمادات.

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿نُورُهُم﴾:

نورٌ اختُصّ بهم ولا يناله سواهُم

إضافةُ النّورِ إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ ليست على جهة التّعريف والتّعيين، إذ لم يسبق الحديثُ عن نورٍ يخصُّهم، وإنّما هي إضافةٌ تُفيد الاختصاصَ، لتدلَّ على أنّ هذا النّورَ خاصٌّ بهم يومَئذٍ، يُميّزهم من غيرهم، ويجعلُهم ظاهرين بنور إيمانهم وأعمالهم، بين ظلمات ذلك الموقفِ وأهوالِه[2].

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ دون (يسعون):

أُسنِد التّعبيرُ القرآنيُّ السّعيَ إلى النّورِ في قولِهِ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾، ولم يَقُلْ: (يسعون)؛ لأنّه تعبيرٌ يدلُّ على الجَهْدِ والمَشَقَّة والمُعاناة، وهذا غيرُ مُرادٍ في مشهدِ التّكريم.

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ بالسّعي:

التّنويهُ بمكانةِ المؤمنين وتعظيمُ قَدْرِهم

في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ[3]، صوِّر فيها امتدادُ النّورِ وانتشاره بحركة السّاعي المُسْرِع، دلالةً على ملازمتِهِ لهم حيثما توجّهوا، وتنويهًا بمكانتهم، كما تُنْشَر الأعلامُ بين يدي المُلوك، وتُساق الجياد أمامَ الخلفاء[4]، فهو نورٌ يباهي بهم، لا مَحضُ ضياءٍ يَهديهم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 370 - 371.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 465.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 371.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ زمنِ السّعي للنّور كما ذُكِر مكانُه:

نورُ أهلِ الإيمانِ مُتلبِّسٌ بهم، لا سابقٌ عليهم ولا مفارقٌ لهم

من لطائف التّعبير في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أنّه بيّن مكان السّعي بقوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾، ولم يذكر زمنَه؛ لأنّ الزّمن مُتضمَّن في فعلهم، إذِ النّور لا يسعى إلّا بسعيهم، ولا ينفصل عنهم في حركته، فهو تابعٌ لهم، يظهر حين يظهرون، ويسير حيث يسيرون، وهو نورٌ حقيقيٌّ يكرمُهُم اللّه به في ميدان الحشر، إشعارًا بعُلوّ منزلتِهم، وإظهارًا لسِمَتِهم بين الخلائق[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالمُذكّرِ ﴿نُورُهُم﴾ دونَ المؤنّثِ (نورهنّ):

تغليبُ التّذكيرِ في موكبِ النّورِ لاتّحادِ المشهدِ والمصيرِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ﴿نُورُهُم﴾ بصيغة التّذكير تغليبًا للفظ المُذَكّر في الجمع، واتّباعًا للقاعدة اللّغويّة في مخاطبةِ المُختلط من الذّكورِ والإناث، كما أنّ (النّور) لفظٌ مُذكَّرٌ في ذاته، فناسبَ أن يكون الضّمير مطابقًا له، وهذا الأسلوب يُفيد وحدةَ المشهدِ، واتّحادَ المَوكب، إذ إنّ النّور واحدٌ في نوعِهِ، وإنِ اختلفت مصادرُهُ بحسب عملِ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ النّورِ:

صحائفُهم تُنيرُ لهم المرورَ على الصّراطِ للوصولِ إلى دارِ النّعيمِ

قوله: ﴿نُورُهُم﴾ هنا ليس حِسًّا محضًا، بل هو استعارة عن هداية تقودهم إلى الجنّة[2]، واستجلاءٌ لصحائفِ أعمالِهم المُشرقة، فهي في بهائها وإشراقها كالضّوء المُنبعث، يُهتدى به في الظّلمات، فجاء (النّور) للدّلالة على ما حملته صحائفُهم من طاعاتٍ وإيمانٍ، فجعلها اللّهُ نورًا يسعى بهم إلى دار الكرامة، كما يسعى السّراج بأهله في اللّيلة الظّلماء، فهي أعمالٌ تحوّلت نورًا، وهدايةٌ أوجبت نجاةً من النّار[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 380.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 455.
(3) زادة، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 109.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ ﴿بَيْنَ﴾ دون غيرِها من الظّروفِ:

النّورُ بين أيديهم لِتُسَرَّ به عيونُهُم ويَعْظُمَ به شَرفُهُم

خصّ القرآن الكريم التّعبير بقوله: ﴿بَيْنَ﴾ دون غيرها من الظّروف، لما يحمله من معنًى يُميزّه عن غيره؛ فيُقال: "بين يديك"، لكلّ ما كان أمامَك[1]، لذا خُصّ بالذِّكر هنا؛ لأنّ النّور إذا تقدّمهم أبصرته أعينُهم، وتنعّمت بمشهده نفوسُهم، فشعروا به كرامةً تُحَسُّ وتُرَى، وكان بين أيديهم كما توضَع النّفائسُ في متناول اليد[2]، إذِ اليدُ موضعُ التّملّكِ والشّرف، واليمين مَظنّةُ الفضل والتّمييز. وممّا يُذْكَر في سرِّ التّعبير به: أنّه يَحمِل دلالاتٍ مُتعدّدةِ الأبعاد، فهو لا يُحَدّد مجرّدَ الموقع المكانيّ للنّور، بل يُصَوّر حركتَه وانتشاره الشّاملِ الذي يُحيط بالمؤمنين والمؤمنات، كدليلٍ هادٍ ومُرشدٍ لهم في يوم القيامة، هذا النّور ليس مُنفصلًا عنهم، بل هو نابعٌ من إيمانهم وأعمالهم الصّالحة التي قدّموها في الدّنيا، وهو يتناسب طرديًّا مع حجم هذه الأعمال، كما أنّه أداةٌ إلهيّةٌ للتّمييز بين المؤمنين والمنافقين، وفيه بشارةٌ لأهل الإيمان، ونجاةٌ في ذلك اليوم المهيب.

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ دونَ غيرِها من الجوارحِ:

النّورُ السّاعي بين الأيدي هدايةٌ تسبقُ الخُطَى وتُنيرُ السّبيلَ

خصّ اللّهُ تعالى النّورَ بالسّعي بين أيديهم في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ دونَ غيرِها من الجوارح؛ لأنّ بين الأيدي هو موضع الخُطى ومحلُّ السّير، وهو أحوج المواطن إلى الضّوء والبيان[3]، ففي ذِكْره إيماءٌ إلى الهداية الموصلة، وفي تخصيصه تعريضٌ بأنّهم لا يتعثّرون، فهو نورٌ قائدٌ، وهدايةٌ سالكةٌ.

سِرُّ تقديمِ الأيدي على الأيمانِ:

قدّم الأيدي على الأيمان في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (يدي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 371.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 261.

نـورُ الـهـدايـةِ يسعى أمامَهم، ونـورُ التّشريفِ يسطعُ بأيمانِهم

﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ من بابِ تقديم العامِّ على الخاصِّ، أو الكلّ على الجُزءِ، فالنّور الذي يسعى بين الأيدي يدلُّ على الهداية التي تقودهم إلى الجنّةِ، ثمّ النّور الذي على أيمانهم؛ أيْ: جهة أيديهم اليُمنى، وهي الجهة التي يُعطَى فيها الكتاب، فيكون ذلك النّور دالًّا على كرامة المؤمنين وحُسنِ عاقبتهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالواوِ في قولِهِ: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾:

الجمعُ بين نورِ الـهـدايـةِ ونـورِ التّكريمِ

الواو في قوله: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ حرفُ عطفٍ[1]، حيثُ عطف المصدرَ على الظّرفِ؛ لأنّ الظّرف مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديره: كائنٌ بين أيديهم، وكائنٌ بسبب أيمانهم[2].

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾:

تشريفُ اليمينِ، والإشـارةُ إلى شـمـولِ الـنّـورِ المُبينِ

الباء في قوله: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ ظرفيّةٌ مكانيّةٌ، وهي دالّةٌ على الإحاطة، إذِ المعنى عن أيمانهم، فجاء ذِكْرُ اليمين تشريفًا للجهةِ؛ إذْ هي موطنُ الفألِ والكرامةِ، فنابت عن سائرِ الجهاتِ[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ النّورَ لا يحدّه جانبٌ؛ بل يكتنفُهُم من كلِّ جهةٍ. ويجوز أن تكون الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ دلالةً على الملابسة، فيكون النّور مُلازمًا لجهةِ اليمين لا من حيثُ الاتّجاه فحسب، بل من حيثُ المعنى والرّمز، إذِ اليمينُ موضعُ كتابِ الحسنات، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: 19][4].

دلالةُ تخصيصِ الجمعِ بين الأيدي والأيمانِ:

الـجـمـعُ بين صفتي التّكريمِ والتّشريفِ

خصّ التّعبيرُ القرآنيّ الجمعَ بين ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ في مشهد النّور؛ لأنّهما سمتا الكرامة ومهبطا البشارة، فالسّعداء يُؤتَون

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 9/ 501.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 261.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 380.

صحائفهم من هاتيْن الجهتيْن، جهةِ الأمام وجهة اليمين؛ بخلاف الأشقياء الذين يُؤتَون صحائفهم من الشّمال، أو من وراء الظّهور، فجعل النّور يسعى في هذيْن المعلَميْن؛ ليكون علمًا للفوز، وعلامةً تُفرَز بها الوجوهُ النّاضرة عن الكالحة[1]. وممّا يُذكَر في سرّ التّخصيص أنّ النّور الموهوب لأهل السّعادة نوران لا نورٌ واحدٌ؛ أحدهما: يتقدّمهم بين أيديهم، يضيء لهم الطّريق، ويهديهم في السّير. والآخر: يلازم أيمانَهم، فيفيض ضياؤه على ما حولَهم من الجهات[2]، فكأنّهم مُحاطون بهالة الأنوار، تَحُفّهم من الأمام واليمين. ولبيان أنّ النّور أصله بأيمانهم، والذي بين أيديهم هو الضّوء المنبسط من ذلك[3]. ويمكن أن يُقال: إنّ سرّ الجمع هو الاحتراسُ من معنًى قد يَرِد في الذّهن أنّ التّعبير بقوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الذي يدلّ على الأمام قد يُفْهَم منه أنّ النّور يكون بعيدًا عنهم ولا يضيء لهم؛ لأنّ الأمام مساحتُه واسعة؛ فجاء التّعبير بقوله: ﴿وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ ليُؤكّد على اتّصال النّور بهم، وانتفاعهم به؛ لأنّه مُلابسٌ لهم.

سِرّ التّعبيرِ بالأيمانِ عن كلِّ الجهاتِ:

اليمينُ أشرفُ الجهاتِ وأعلاها منزلةً

عُبِّر ﴿وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ عن الجهات كلّها؛ إذ أُريد به الإحاطة من جميع الجهات، فاختيرتْ جهةُ اليمين دونَ غيرها؛ لما لها من دلالة على اليُمْن والبركة، فجاء التّعبير بالبعض وأُريد به الكلّ، على طريقة العرب في الإيجاز والبيان[4]. وقد عبّر بالأيمان عن الجهات كلّها، لما حوت من شرف المكانة ومَجْد الدّلالة، فهي أسمى الجهات، وأشرفُها في عُرْف العرب[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 475.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 27/ 174.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 9/ 237.
(5) السّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 10/ 241، والهرريّ، حدائق الرّوح: 28/ 450.

سِرُّ التّعبيرِ بالجمعِ في ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ دونَ الإفرادِ:

نـورُ التّكريم يتجلّى من كلِّ الجهاتِ

استعمال الأيمان جمعًا في الآية دونَ الإفراد إيماءٌ إلى إحاطة النّور بالعبد المؤمن من جهاتٍ مُتعدّدةٍ، فالأيمان هنا ليست مقصورةً على جهةٍ واحدةٍ، بل تشمل كلَّ الجهات التي ترمز إلى البركةِ والنّعمةِ والقَبول وعموم الغاية.

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾:

التّعانقُ بين النّورِ وأصحابِهِ

الإضافة في قوله: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ دالّةٌ على علاقةٍ وثيقةٍ، وخصوصيّةٍ بين النّورِ وأصحابِهِ، وتُعبِّر عن مُلازَمة النّور لهم واقترانِه بهم، لا مُجرّد وجوده في جهةٍ مُجرَّدة. وفَهِمَ البعض اختصاصَ النّور بمؤمني هذه الأُمّة من الإضافة، ولكنّ الأدقّ أن يُقالَ: إنّ ما يكون من النّور لهذه الأُمّة أجلى من النّور الذي يكون لغيرها، أو ممتازٌ بنوعٍ آخر من الامتياز[1].

بلاغةُ حذفِ القولِ مع البُشرى:

المُسارعةُ في إيقاعِ البشارةِ على النّفوسِ

جاء تركيبُ جملة: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ﴾ على تقدير محذوف، وهو القول الذي يسبق البشارة، وحُذف المضافُ وأُقيم المُضاف إليه مقامه، والتّقدير: يُقال لهم: بشراكم دخولُ جنّاتٍ[2]؛ وذلك إعلاءً لوقع البشارة في النّفوس، وإيجازًا يُضفي على الخطاب مسحةً من الفوريّة والمباشرة، وكأنّ البشارة تُلقى عليهم دون حاجةٍ إلى تمهيدٍ أو تفصيلٍ، فيُفاجَؤون بها مفاجأةً تملأ قلوبهم نورًا وسرورًا.

سِرُّ التّعبيرِ بالبُشرى دون البِشارةِ:

المَقصِدُ النّعيمُ الدّائمُ المنثورُ لا مُجرّد التّبشيرِ المأثورِ

اختير لفظُ البُشرى دون البشارةِ؛ لأنّ المُرادَ ليس مُجرّدَ فعلِ التّبشيرِ[3]، بل ما يُبشَّر به فعلًا من النّعيمِ والثّوابِ، فدلّت البُشرى على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 27/ 175.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 261.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 175.

المُبشَّرِ به ذاته؛ فهذا التّعبيرُ أفاد تحقيقَ المُبشَّر به ودوامَه وامتلاكه، لا مُجرّدَ الإخبار به، فناسبَ مقامَ الكرامةِ الأبديّة في الجنّة.

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾:

التفاتُ التّكريمِ من غيابِ الوصفِ إلى حضورِ البُشرى والخطابِ

في قوله تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾ التفاتٌ بديعٌ من الغَيْبَة إلى الخطاب، إذِ انتقل السّياق فجأةً من قوله: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بصيغة الغائب إلى مخاطبتهم مباشرةً، وكأنّ الملائكة تلتفتُ إليهم التفاتَ تكريمٍ، وتُقرّب إليهم خطابًا بعد طولِ انتظارٍ، وكأنّ مشهد البُشرى أمامَك، وهذا يبعثُ الفرحَ والسّرورَ أكثرَ ممّا لو قيل: (بشراهم)[1]؛ فكان ذلك أوقعَ في النّفس، وأبهجَ للقلوب، وأشدَّ أثرًا في تجلّي البُشرَى.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾ دونَ الفِعليّةِ (يبشرهم):

بشارةُ أهلِ الإيمانِ ثابتةٌ لهم، تُرافقهم في كلِّ مكانٍ في الجنّةِ

جاء التّعبيرُ بالاسميّة في قوله تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ بدلًا من الفعليّة (يُبشّركم)؛ لما في الاسميّة من دلالةٍ على الثّباتِ والاستمرارِ[2]، فكأنّ البُشرى صارت لهم صفةً لازمةً، لا فعلًا عابرًا، فهي بشارتهم العظيمة التي ترافقُهم في كلّ ما يستقبلهم مع النّعيم والرّضوان[3]. والتّعبير بالاسميّة فيه دلالة على المبالغة[4]؛ إذِ الاسم أدلُّ على الرّسوخ من الفعل، فهي بُشرى عظيمةٌ، فالاسم هنا يُضفي على البُشرى قوّةً وثباتًا، بما يجعلها أكثرَ بهاءً وأبلغَ تأثيرًا في النّفس.

دلالةُ الخطابِ في قولِهِ: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾:

الخطابُ شهادةُ تكريمٍ وأمنٍ واطمئنانٍ

قوله تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ خطابٌ مُشرِّفٌ يُشْعِر بالأمان ويبعث على الطّمأنينة، إذ دلّ على أنّ المؤمنين في مأمنٍ من أهوال يوم القيامة، لا ينالهم فَزَعٌ، ولا يخالطهم جَزَع؛ لأنّ الله تعالى

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 338.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 9/ 194.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 19/ 272.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 450.

وصفهم بهذه البُشرى العظيمة في ذلك اليوم الرّهيب، دونَ تقييدٍ أو تخصيصٍ[1] بقوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: 103]، فكان الخطاب بمثابةِ شهادةِ تكريمٍ، وعلامةِ أمانٍ عامٍّ لِمَن ثبتَ إيمانُه، وأخلص قلبه.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ مُعرَّفًا بعد وُرودِهِ مُنكَّرًا:

جاء التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل) بعد أن ورد في مطلعِ السّياق مُنكّرًا في قوله: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لتحوُّل المقام من التّمهيد والتّشويق إلى لحظة التّتويج والتّحقيق؛ فالتّعريف يدلّ على التّعيين، والتّوكيد، والكمال[2]، وكأنّه اليومُ الذي لا يضاهيه يومٌ، ولا يُشبهه مقامٌ، فيه يشعر بعظم الشّأن، وجلال اللّحظة، وكمال البشارة.

يـــومَ إعـــلانِ الـتّـشـريـفِ والتّكريمِ

سِرُّ عدمِ تقييدِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ بأيّ وصفٍ من أوصافِ القيامةِ:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ دون تقييدِهِ بوصفٍ من أوصافِ يوم القيامة، كأن يُقال: (يوم الحساب) أو (يوم الجزاء) ونحوهما؛ لأنّ هذه الأوصافَ تُشير إلى مشهدٍ مُعيّنٍ من مشاهد يوم القيامة التي تسبق دخول الجنّة؛ بخلاف التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ مُجرّدًا عن إضافةِ أيّ وصفٍ آخر، فإنّه يدلُّ على اليوم الذي تشتاق إليه النّفوسُ؛ فهو اليوم الذي لا يومَ بعدَه، وكأنّ ما قبله من أوصاف يوم الحساب أو الجزاء من باب التّمهيد للوصول إلى يومِ الخلود في دخولِ الجنّةِ.

إنّـه اليـومُ الذي تـشـتـاق إلـيـه الـنّـفـوسُ؛ وهو الـيـومُ الـذي لا يومَ بعدَه

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿جَنَّٰتٌ﴾ جمعًا مُنكّرًا:

وُرود ﴿جَنَّٰتٌ﴾ جمعًا مُنكَّرًا، دون أن يُؤتى به مُفردًا مُعرّفًا كـ(الجنّة)؛ لما في صيغة الجمع من إشعارٍ بكثرةِ البقاعِ، وتعدُّدِ المنازلِ، وتنوّعِ مراتبِ النّعيم، ولِما في التّنكير من تعظيمٍ وإجلالٍ؛

جـنّـاتٌ رفيعةُ الشّأنِ لا تُحيطُ بها الأذهـانُ ولا تُدرَك بوصفٍ أو تبيانٍ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 456.
(2) الهلال، تفسير القرآن الزّكي: 11/ 338.

إذ يُفهَم منه أنّها جنّاتٌ عظيمةُ الشّأن، فائقةُ الوصف، لا تَحُدّها عبارةٌ، ولا تُحيط بها إشارةٌ، فهي جنّات الفردوس، أو عَدْن، أو النّعيم، أو الخُلد[1]، أو غيرها ممّا لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ.

سِرُّ ذِكْرِ ﴿جَنَّتُ﴾ مُطلقًا دونَ تعيين أوصافِها:

إطلاقٌ فيه تتّسِعُ الآمالُ وتسمو الخيالاتُ ويعظُم الوعدُ

ذُكِرت ﴿جَنَّتُ﴾ مُطلقةٌ غيرَ مقيّدةٍ بوصف كـ(جنّة النّعيم) أو (جنّة المأوى)؛ لإثارة التّشويق، وفتح أبوابِ التّوقّعِ والرّجاء، فكأنّ السّياق أراد أن يُبقيَ للخيال ميدانًا رحبًا، وللرّغبة مجالًا واسعًا، فيتلهَّفُ السّامعُ إلى معرفة ما وراءَ هذا الإطلاق من عظَمة النّعيم وتنوّعِه.

سِرُّ تقييدِ ﴿جَنَّتُ﴾ بجريانِ الأنهارِ مادّةً وصيغةً:

أنهارُ الجنّةِ في جريانٍ مُستمرٍّ لا يعتريها كَدَرٌ

في وصف ﴿جَنَّتُ﴾ بجريان الأنهار يوحي بالحركة والانسياب والامتداد، وصيغةُ المضارع ﴿تَجۡرِي﴾ تُضفي على المشهد طابعَ التّجدُّدِ والاستمرار، وكأنّ الجنّات ليست ساكنةً خاملةً، بل حيّةً نابضةً بالحياة، تُبهِج النّظرَ، وتشرحُ الصّدرَ بجريان الأنهار فيها آناءَ اللّيل وأطرافَ النّهار، فصار المشهد مَرئيًّا حيًّا، يُستَحضَر أمام السّامع كأنّه يَراه، لا يوصَف له فحسبُ. وفيه إشارةٌ إلى محافظة الماء الجاري على عذوبته.

بلاغةُ المَجازِ بالحذفِ في لفظِ ﴿جَنَّتُ﴾:

المسارعةُ بإعلانِ مكانِ البشارةِ

الأصل ألّا يُخبَر عن المعاني بأسماء الذّوات[2]؛ إذ لا تَساويَ بينهما في الطّبيعة، فقوله تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّتُ﴾ معناه: يُقال لهم بشراكم دخولُ الجنّات، فحذف المُضاف، وأُقيم المُضاف إليه مقامَه[3]، ولا بدَّ من هذا التّقدير؛ لأنّ البُشرى أمرٌ معنويٌّ، والجنّة ذاتٌ محسوسةٌ، فلا يصِحّ أن تكون الجنّة عينَ البشرى[4].

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 338.
(2) ابن السّراج، الأصول في النّحو: 1/ 63.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 261.
(4) المُنتجب، الفريد: 6/ 97.

ويحتمل أن يكون قد عدلَ عن التّقدير الأصليّ، وهو دخول الجنّات إلى التّصريح بالجنّات ذاتِها، مبالغةً في التّبشير[1]، وتعظيمًا للبُشرى، إذْ جعل المُراد كأنّه حاصلٌ مُتحقّقٌ، لا وعدٌ مُعلّقٌ.

سِرُّ إسنادِ الجري إلى الأنهارِ لا إلى الماء:

جـريـانُ الأنـهـارِ مشهدُ استقرارٍ ونـعـيـمٍ ودوامٍ وازدهارٍ

أُسْنِد الجريُ إلى الأنهار في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ من باب المَجازِ العقليّ، ومن أشهر علاقاته الإسناد إلى المكان كما في هذه الآية؛ حيثُ أسندَ الجريَ إلى الأنهار، وهي أمكنةٌ للمياه وليست جاريةً، بل الجاري ماؤها[2]؛ لأنّ التّعبير بالأنهار أبلغُ وأوفى بالمقصود؛ فالأنهارُ تدلّ على المواضع والمجاري التي يجري فيها الماء، وإسناد الجريان إليها مجازٌ مشهور يُراد به جريانُ الماء فيها، وفي هذا التّعبير تصويرٌ حسّيّ يُظهِر الجنّاتِ وكأنّها محفوفةٌ بأنهارٍ دائمةِ الجريان، لا مجرّدَ ماءٍ يَمرُّ ثمّ ينقطع، وفيه تثبيتٌ لمعنى النّعيم والاستقرار.

دلالةُ تقديمِ ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

إظـهـارُ مـكـانِ الجـريـانِ وعُـلـوّ الجنّاتِ

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لإظهار مكانِ الجَرَيان أوّلًا، فيتخيّل السّامعُ الجنّاتِ مرفوعةً عاليةً، تسير الأنهارُ من تحتها في مشهد يوحي بالتّمكين والرِّفعة، لا مجرّدِ البهاء، وترسيخِ صورة الجنّة ككيان عالٍ تُحيط به النّعمُ، وتنبثقُ من أسفله، كما أنّ تأخير ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يُحدِث تشويقًا يلفت السّمعَ، ويَشدُّ الانتباهَ إلى النّعمة العظيمة المنتظَرة، فجاء التّرتيبُ مُعبِّرًا عن جلال المشهد، وروعة النّعيم.

بلاغةُ وصفِ الجنّاتِ بجريانِ الأنهارِ من تحتِها:

امـتـزاجُ الجمالِ بالنّعيمِ

جاء وصفُ الجنّات بجريان الأنهار من تحتها، تصويرًا بديعًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 272.
(2) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 255.

يُكمّل مشهدَ النّعيم؛ إذ لا تكتمل اللّذّةُ إلّا بامتزاجِ الخضرةِ بالجَرْي[1]، والسّكونِ بالحركة، فجاء الفعل ﴿تَجۡرِي﴾ دالًّا على الانسيابِ الدّائم، والحياةِ المُتجدّدة، وذُكر ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ ليدلَّ على تفرُّق الأنهار تحت الأشجار والقصور[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، مع سِرِّ جمعِها:

الإشـــارةُ إلى أنهارِ الجنّةِ دونَ غيرِها

(أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للعَهْدِ، فهي تُشير إلى أنهارٍ مخصوصةٍ معروفةٍ، لا إلى مُطلَقِ الأنهار، وهي تلك الأنهار الأربعة التي وعد اللّهُ بها عبادَه في الجنّة بقولِه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ [محمّد: 15]، وهي نهرُ الماءِ العذبِ، ونهرُ اللّبنِ الذي لم يتغيَّر طعمُه، ونهرُ الخَمْرِ لذّة للشّاربين، ونهر العسلِ المُصفّى[3]؛ فجُمع اللّفظ تعبيرًا عن تعدُّد الموارد، وتنوُّع اللّذّاتِ، وتكاملِ النّعيمِ في دارِ القرارِ.

سِرُّ التّعريفِ بـ(أل):

التّعريفُ بـ(أل) مؤذِنٌ بالشّمولِ والتّنوّعِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بتعريفِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بـ(أل) دونَ الإضافةِ إلى الجنّاتِ بـ(أنهارها)؛ لأنّ (أل) هنا للكمالِ[4]، فالتّعريف بها أبلغُ من الإضافةِ؛ لأنّه يُشيعُ في النّفسِ عظمةَ هذه الأنهارِ وشمولِها، ويوحي بكمالِ النّعيمِ، وتعدُّدِ الموارد، لا كما توحي الإضافةُ بمُلكيّةٍ قاصرةٍ، أو نسبةٍ محدودةٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دونَ البقاءِ أو الإقامةِ:

الـــدّلالـــةُ على الـــدّوامِ المُطلَقِ الذي لا انقطاعَ له

عُبِّرَ بصفةِ الخُلودِ في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ بدلًا من البقاءِ أو الإقامةِ؛ لما في لفظِ الخلودِ من دلالةٍ على الدّوامِ المُطلَقِ الذي لا انقطاعَ له، مع استقرارٍ لا ارتحالَ بعدَه، ومُكْثٍ لا يُتصوّر زوالُه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 272.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 451.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 451.
(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 109.

ولأنّها تنفي إمكانَ الانتقال والتّحوّل[1]، وتُشيعُ في النّفس طمأنينةَ القرارِ الأبديّ؛ بخلاف التّعبير بالبقاء أو الإقامة؛ فلا يُؤدّيانِ معنى الدّوامِ المُطلقِ؛ لذلك آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الخُلود دونَ غيرِه في حديثه عن نعيم أهل الجنّات.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

خُلودٌ بلا انتهاءٍ، ودوامٌ لا يعتريه الفناءُ

جاء التّعبيرُ بالاسميّة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دون الفعليّةِ (يخلدون)؛ لما في الاسمِ من دلالةِ الثّباتِ والاستقرار، بخلافِ الفعلِ الذي قد يحتمل معه تجدُّدَ الحَدَثِ أو انتهاءَه، فالاسم هنا يدلُّ على خلودٍ مُستقرٍّ لا يعتريه زوالٌ، ودوامٍ مُطلقٍ لا يتهدَّدُه انقطاعٌ؛ تحقيقًا لوعدٍ ربّانيٍّ لا يورَث ولا يُنتزعُ، بخلاف أحكام الدّنيا الزّائلةِ، فالجنّة دارٌ لا موتَ فيها[2]، ونعيمٌ لا يخشى أهلُه الفقدَ ولا الفناءَ.

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

انتقالٌ من خطابِ الوعدِ إلى تحقيقِ الموعودِ

في التّعبيرِ بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ التفاتٌ؛ لأنّه انتقالٌ من ضميرِ المخاطَبةِ في ﴿بُشۡرَىٰكُمُ﴾ إلى ضميرِ الغَيْبةِ، فاستبدل المخاطَب بالمَذكور، فكأنّه ينقل النّعمةَ من واقعِ الوعدِ المباشَرِ إلى الحقيقةِ في الغيبِ، ولو جرى الاستعمالُ على المباشرِ لكان التّركيبُ: (خالدًا أنتم فيها)، لكنّ هذا الالتفات من فنون البيانِ[3] التي تُضْفي على النّص سحرًا خاصًّا، وتُثبِّتُ المعنى في أذهانِ السّامعين.

دلالةُ الإضمارِ في قولِهِ: ﴿فِيهَآ﴾:

تناسبُ الإضمارِ مع معنى الجنّةِ في اللّغةِ

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بالإضمار ﴿فِيهَآ﴾ دون الإظهار (جنات) لسَبقِ ذِكرها في قوله: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ﴾، ويُلْمَح في الإضمار التّناسبُ مع معنى الجنّة في اللّغة؛ فهي تدلُّ على السّتر والخفاء، والضّمير يدلُّ على السِّتر والخفاءِ.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 180.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 272.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 105.

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

إشـارةُ تعظيمٍ إلى تمامِ النّعيمِ

جاء التّعبيرُ باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ليشملَ كلّ ما سبق من النّور والبُشرى بالجنّات التي يخلدون فيها[1]، فهو لا يُشير إلى شيءٍ بعينه، بل إلى جملةِ النّعمِ والفضائل المنقولة، كما أنّ استعمال اسم الإشارةِ المُقترن بلام البُعد يدلّ على التّعظيم والتّنبيه[2]، ليُبرِزَ عظَمةَ الفوزِ وإشرافَه على كلّ ما ذُكر، مُجَسِّدًا ذروةَ الغاية وأسمى المراتب.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ الواو مع اسم الإشارةِ:

استئنافُ المَدحِ مزيدُ عطاءٍ في التّنعيمِ

لم تُذْكَر الواو مع ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لأنّ المقام مقامُ ابتداءِ ثناءٍ وتعظيمٍ لنعيمٍ يفجأ أهلَه في موقف الكرب والضّيق، فكأنّ السّياق يستأنف المدحَ؛ أيْ: هذا هو الأمر العظيم[3]، ويفتتح به ثناءً جديدًا لما تقدّم من نورٍ وبُشرى وجنّاتٍ، على وجهٍ يَلْفِت النّظرَ، ويُعظم الفضل. وفيه إشارةٌ إلى جواز أن يكون ذلك من كلام الملائكة، أو من كلام الله تعالى؛ بخلاف وجود حرف العطف فإنّه يُؤدّي إلى أنّه من كلام الملائكة.

سِرُّ التّعبيرِ بالضّميرِ ﴿هُوَ﴾:

فـوزٌ عظيمٌ للمؤمنين، وتعريضٌ مُخْزٍ للمنافقين

جيءَ بضمير الفَصْلِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لتقويةِ الخبر وتحقيقه[4]، فهو الفوز العظيم الذي لا غيره، فزاد في تقرير المعنى وحَصَره، وجعل الكلامَ أرسخَ في النّفس. ولأنّه يُفيد الحَصْر، فيقصر الفوزَ الحقيقيَّ على المؤمنين، وهو في الوقت عينه تعبيرٌ مُشْبَعٌ بالإشعار والتّعريض بحال المنافقين، إذْ يُفهَم من الحصر أنّ مَن عداهم في خُسران مبين[5]، لا حظّ لهم من هذا الظّفر، ولا نصيبَ لهم من ذلك النّعيم. ويَرِد ضميرُ الفصل أيضًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 456.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 272.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 381.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 450.

لإفادة التّوكيد والتّخصيص[1]، فليس ذلك النّعيمُ محضَ فوزٍ، بل هو الفوزُ بعينه، لا فوزَ سواه، فهو وحدَه الفلاحُ الحقيقيّ والمقام المحمود، لا ما يتوهَّمُه النّاسُ من نصرٍ زائلٍ، أو متاعٍ دنيويٍّ حائلٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بالفوزِ دونَ الفلاحِ:

الخلاصُ من المكروهِ مع الوصولِ إلى المحبوبِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفوز في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ دون الفلاح؛ لأنّه يدلّ على النّجاة من الشّرّ مع إدراك الخير، "والفوز هوَ الخَلاص من المَكْروه مع الوُصول إلى المحبوب، ولِهَذا سَمَّى اللّهُ تعالى المُؤمنينَ فائزين لنجاتهم من النّار ونيلهم الجنَّة"[2]. وهو أنسب لسياق الآخرة، حيثُ النّجاةُ من النّار والفوزُ بالجنّة، بخلاف الفلاح الذي يدلّ على النَّجاح العامّ، أو الصّلاح في الحال والمآل، ويكثر في سياقات التّكليف والعمل في الدّنيا، كقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ [المؤمنون: 1]، كما أنّ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ يحمل في طيّاته معنى الغلبة والظّفر، وهذا أليق بالمقام الذي تُذْكَر فيه بُشرى المؤمنين بالجنّات ورضوانِ الله، فهذا أبلغُ في بيان عِظَم الجزاء، وتمامِ النّعمة في الآخرة.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾:

دخولُ الجنّاتِ هو الفوزُ الحقيقيُّ دونَ ما عداه

تعريفُ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ بـ (أل) يُفيدُ الحَصْرَ، فهذا هو الفوزُ الحقيقيُّ الكاملُ، وما عداه فليس من الفوزِ في شيءٍ، وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقين، إذْ يُفهَم ضِمنًا أنّهم خارج هذا الفضل، وأنّ مصيرهم على النّقيض تمامًا، فهم في خُسرانٍ مُبينٍ[3].

سِرُّ وصفِ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ بـ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾:

فوزٌ غَمَرَ الأرواحَ والأبدانَ، وامتدَّ في الآفاقِ والوجدانِ

وَصْفُ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ بـ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ دون (الكبير) أو (المبين)؛ لأنّه يدلّ على الشّمول والامتلاء، فهو فوزٌ عظيمٌ في ذاتِه، عظيمٌ في آثارِه، قد غمر بكمالِه كلَّ الجهات، وامتدّ أثرُه في ذوات المؤمنين وأبدانهم،

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 338.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 210.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 450.

ونفوسِهم وأرواحِهم[1]، حتّى صار العُلوّ والرّفعة والطّمأنينة تملأ الكيان كلّه. ولأنّ هذا الوصفَ يدلُّ على ذروة مراتب النّجاة، وأشرفُ مقامات الظَّفَر، فهو أرفعُ من أن يُقاس بالفوز الكبير أو المُبين، إذ لا يوصَف بالعظيم إلّا ما جلّ خطرُه، وارتفعت درجتُه[2]، وبلغ الغايةَ في رِفعةِ الشّأنِ، وتمامِ الإنعامِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

فـــوزٌ دائـــمٌ لا يـزولُ، راسخٌ لا يَحولُ

التّعبيرُ بالجملة الاسميّة هنا يفيدُ الثّباتَ والدّوامَ، إذ إنّ الجملة الاسميّة بطبيعتها تُستعمل للدّلالة على المعاني المُستقرّة غيرِ المُتجدّدة[3]، فالفوزُ هنا ليس لحظةً عابرةً، ولا نصرًا مؤقتًا، بل هو حقيقةٌ راسخةٌ لا يعتريها زوالٌ، ولا يشوبُها انتقالٌ.

دلالةُ التّعريفِ في قولِهِ: ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

إفـــادةُ الحصرِ والتّفرُّدِ

التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ يُفيدُ الحصرَ والتّفرّدَ، إذ يوحي بأنّ هذا هو الفوز الذي لا يُقدَّرُ قَدْرُه، ولا يُدانى شأنُه، حتّى كأنّه لا فوزَ سواه، ولا يُعتدّ بما عداه، لأنّهم قد نالوا به الغايةَ القُصوى، وبلغوا به تمامَ ما كانوا يرجون[4]، فاجتمع لهم كلُّ ما يُطلب، وانتفى عنهم كلّ ما يُرْهَب.

بلاغةُ الاتّفاقِ والاختلافِ مع آية التّحريم:

رُســوخُ المَـقـامِ في الـتّـحـريـمِ، وتجدُّدُ البشارةِ في الحديدِ

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [التّحريم: 8]، آيتان من باب المتشابه اللّفظيّ، تقدّم الفعلُ ﴿يَسۡعَىٰ﴾ في الآية الأولى، وتأخّر في الآية الثّانية؛ فيسأل عن الفرق بينهما؟.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 273.
(2) الهلال، تفسير القرآن الزّريّ: 11/ 338.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 1/ 76.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 204.

والجواب عن ذلك: أنّه ورد في سورة التّحريم وصفُ المؤمنين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: 8]، والمعيّة هنا تُشير إلى عُلوّ المنزلة، وشرفِ المقام، ممّا يوحي بالثّبات والاستقرار؛ فناسبَ ذلك التّعبيرُ بالجملة الاسميّة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ [التحريم: 8] الدّالّةِ على الرّسوخ والثّبوت، أمّا في سورة الحديد، فلم تُذْكَر معيّةُ النّبيِّ ﷺ، بل جاءت الآيةُ على وجه البشارة المُجرّدة، ممّا يقتضي تجدُّدَ النّعمةِ وظهورَها شيئًا فشيئًا، فجيء بالفعل ﴿يَسْعَىٰ﴾ مقدَّمًا ليَدُلّ على الحُدوث والتّكرار، فكان كلٌّ في موضعه بديعًا، وفي سياقه مُتقنًا، ممّا يشهد لإعجاز النّظم، وبلاغة التّرتيب[1]. ويجوز في التّرتيب أنّ تكون آيةُ الحديد مَعنيةً بإظهار شرف المؤمنين ورِفعةِ مقامهم، فَقُدّمَ الفعلُ ﴿يَسْعَىٰ﴾ لبيان العناية الإلَهيّة بتلك الخصيصة النّورانيّة التي تُضيء لهم الطّريق، وتدلّ على سُموّ إيمانهم، وكأنّ النّور هو السّمَة البارزة المُتقدّمة في مشهد الجزاء، أمّا في آية التّحريم، فقد انصبّ التّركيز على ذاته الشّريفة ﷺ، ومَن معه من المؤمنين، فجاء ذِكْرُهم مُقدَّمًا، تعظيمًا لقدرهم، وتأكيدًا على أنّهم موضعُ الحفظِ والكرامة، ثمّ أُتبعَ ذلك بذِكْر النّور، ليكون تاجًا يتوِّجُ بهاءَهم، ومَظهرًا من مظاهر رفعتهم في مقامٍ لا خِزيَ فيه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّؤيةُ والإبصار:

إدراكُ المَرئيّ لا مجرّدَ إقبالِ البَصَرِ

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ورد الفعل ﴿تَرَى﴾ دون (تُبصر)؛ لأنّ الرّؤية تدلّ على

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 468.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 159.

إدراك المَرئيّ إدراكًا تامًّا، وانكشافًا واضحًا[1]، بخلاف البصر الذي هو مجرّد إقبال العينِ نحوَ الشّيء، وقد يحصل معه الإدراكُ وقد لا يحصل، فالمقامُ مقامُ مشهدٍ جليٍّ يراه الرّائي رؤيةً حقيقيّةً بلا حجابٍ ولا لبس، فجاءت الرّؤيةُ لا البصرُ لتناسبَ هذا المعنى.

السّعيُ والمَشْيُ:

مَـشْيٌ متسارعٌ يُشيرُ إلى العَزْمِ والمُثابرةِ وحُسْنِ النّيّةِ

في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ جاء بلفظ السّعي دونَ المُرادفِ له كالمشي، لما يحمله السّعيُ من دلالةٍ زائدةٍ على مُجرّد الانتقال بالأقدام؛ فالسّعيُ في اللّغة: هو المَشْيُ السّريع الذي لا يبلغ حَدَّ العَدْوِ، وهو مشيٌ ينطوي على اجتهادٍ وحِرصٍ ومبادرةٍ، بخلاف المشي الذي قد يُفهَم منه التّمهُّل، فاختيارُ لفظِ السّعي هنا يوحي بمعانٍ من الجِدّ والمثابرة والإقبال الحثيثِ على المقصود، وهو فعلٌ محمودٌ[2]، وهو في هذا السّياق الكريم يدلُّ على نورٍ يسعى بأهله سعيًا حثيثًا، في مشهدٍ مهيبٍ مُفعَمٍ بالبشارة والكرامة، ليُبْرِزَ أنّ ذلك النّورَ ليس ساكنًا ولا بطيئًا، بل مندفعًا متتابعًا يواكبُ مسيرَ المؤمنين في جِدِّهم واجتهادهم، حتّى بلغوا هذا المقامَ الرّفيعَ.

الفوز والفلاح:

الـفـوزُ أنـسـبُ لسياقِ الآخـرةِ حـيـثُ الـنّـجـاةُ من النّارِ وبلوغُ الجنّةِ

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، عبّر بـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ دون (الفلاح)؛ لأنّه يدلّ على النّجاة من الشّرّ مع إدراك الخير، "والفوز: هو الخَلاص من المَكْروه مع الوُصول إلى المحبوب، ولِهَذا سَمَّى اللّهُ تعالى المُؤمنينَ فائزين؛ لنجاتهم من النّار ونيلهم الجنَّة"[3]، وهو أنسب لسياق الآخرة حيث النّجاة من النّار والفوز بالجنّة، بخلاف

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 544.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 359.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 210.

الفلاح الذي يدلّ على النّجاح العامّ، أو الصّلاحِ في الحال والمآل، ويكثر في سياقات التّكليف والعمل في الدّنيا، كقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: 1]، كما أنّ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ يحمل في طيّاته معنى الغَلَبَة والظَّفَر، وهذا أليقُ بالمقام الذي تُذكَر فيه بُشرى المؤمنين بالجنّات ورضوانِ الله، فهذا أبلغُ في بيانِ عِظمِ الجزاءِ، وتمامِ النّعمةِ في الآخرةِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"